التفسير الموضوعي
في دعوة النبي شعيب عليه السلام
للإصلاح
من خلال القرآن الكريم

تقديم

د. راشد سعد العليمي

(كلية التربية الأساسية–
الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب)
دولة الكويت

(2017 – 1438)

من 627 إلى 666

المقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لانبي بعده، وعلى آله وصحبه..أما بعد:

فإنّ منهج الاصلاح في القرآن الكريم من المواضيع التي تعتبر من أساسيات الدعوة الاسلامية، ومن مقاصد شريعتنا المباركة، فيه النور الذي يبدد الظلمات بين الأفراد، والعصمة التي تمنع الفتنة من وقوعها في المجتمع، والحكمة التي تمنع من طيش المندفعين، ومما لا شك فيه بأن الخير كله والهدى كله والصلاح كله مستودع ومتناثر في طيات كتاب الله سبحانه وتعالى، وفي سنة نبينا ﷺ وفيهما جمع مبارك، وبيان لكل حق، ودحض لكل باطل.

ومن هنا كان لزاما علينا جميعا الاهتمام بموضوع الإصلاح من جميع جوانبه في حياتنا، وأن نحققه واقعًا عمليًا لا تنظيرا، وأن نجتهد في فهمه وتطبيقه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما سار عليه سلفنا الصالح، فإننا في زمن اضطربت فيه الآراء، واختلطت فيه الاهواء، وتسارعت فيه الحوادث، ولاشك أن ذلك يجعلنا بحاجة ملحة إلى العود للمنبع الصافي الذي لا تشوبه شائبة؛ وهو الكتاب وسنة نبينا ﷺ.

ولقد كان أنبياء الله تعالى عليهم السلام خير من قام بمهمة الإصلاح، بل كان الإصلاح هو محور راسلتهم، ولقد اختط كل نبي منهجا وسبيلا وقواعدا متنوعة ومنضبطة لإصلاح بناء على ما تقتضيه الحال وطبيعة وحجم الانحراف الحاصل في المجتمع.

ومن الأنبياء الذين أكثر ذكرهم القرآن الكريم وبين منهجه في الإصلاح مع قومهم نبي الله شعيب عليه السلام.

ولما كانت سيرة نبي الله شعيب عليه السلام تمثل مدرسة ومنهجا حكيما في الإصلاح أحببت أن أجعله أنموذجا للدراسة.

وهذه ورقات في التفسير الموضوعي في دعوة النبي شعيب عليه السلام للإصلاح من خلال القرآن الكريم، بحثت فيه جوانبا من قواعد الدعوة إلى الله، ضمن خطة متعلقة بهذا الموضوع.

وجاءت خطة البحث من بعد المقدمة السابقة وفق الآتي:

التمهيد: التعريف بمصطلحات عنوان البحث:

أولا: تعريف مصطلح (المنهج).

ثانيا: تعريف مصطلح (الإصلاح).

ثالثا: التعريف بالنبي شعيب عليه السلام.

رابعا: التعريف بقوم شعيب (مدين).

المبحث الأول: (الإصلاح في القرآن) ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: أهمية الإصلاح في الوجود.

المطلب الثاني: الإصلاح مقصدا دعويا وتشريعياً.

المطلب الثالث: منهج الإصلاح في القرآن الكريم.

المطلب الرابع: حاجة أهل مدين إلى الإصلاح.

وفي المبحث الثاني:(منهج النبي شعيب عليه السلام في الإصلاح)، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: معالم الإصلاح في دعوة النبي شعيب عليه السلام، ويشتمل على ثلاثة فروع:

الفرع الأول: الدعوة إلى الإصلاح العقدي.

الفرع الثاني: الدعوة إلى الاصلاح التشريعي.

الفرع الثالث: الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي.

المطلب الثاني: قواعد الإصلاح في منهج النبي شعيب عليه السلام، ويشتمل على تسعة فروع:

الفرع الأول :الإصلاح للعقيدة أساس كل إصلاح.

الفرع الثاني: الاعتراف بأنعم الله سبحانه وتعالى.

الفرع الثالث: إصلاح الذات وإظهار القدوة الحسنة.

الفرع الرابع: الإصلاح بقدر الاستطاعة.

الفرع الخامس: الدعوة بالقول الحسن والحوار المتعقل.

الفرع السادس: ربط الاحكام بمقاصد التشريع وحكمة الشارع.

الفرع السابع: أهمية الاعتبار بالأمم السابقة الكافرة.

الفرع الثامن : الثبات على المبدأ الحق.

الفرع التاسع: طلب التوفيق من الله ﷻ والتوكل عليه والإنابة اليه.

المبحث الثالث: (قوم شعيب في مواجهة الإصلاح)، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: وسائل قوم شعيب لمواجهة الإصلاح، ويشتمل على أربعة فروع:

الفرع الأول: رمي الاتهامات والشائعات.

الفرع الثاني: قطع السبيل.

الفرع الثالث: التفاخر بالكثرة والقوة.

الفرع الرابع: السعي لطرد المصلحين من البلد.

المطلب الثاني: قوم شعيب والعذاب، ويشتمل على فرعين:

الفرع الأول: عاقبة قوم شعيب

الفرع الثاني: نبي الله شعيب والإعذار من قومه

الخاتمة والتوصيات

أهمية الموضوع:

تظهر أهمية الموضوع عند معرفة الجوانب الآتية:

1/ أن الدعوة إلى الله مهمة الأنبياء، وظيفة المرسلين.

2/ أن الدعوة إلى الله لها قواعدها الواضحة، وسبلها الشرعية.

3/ أن خير من قام بمهمة الدعوة إلى الله سبحانه هم صفوة الناس، الأنبياء.

4/ الدعوة إلى الله لها غاية سامية، إلا وهي التوجيه لتحقيق التوحيد.

منهج البحث:

ولعل من المناسب في هذا البحث اختيار المنهج التحليلي للبحث، وذلك لمناسبته لمادة الموضوع، من خلال النظر لما ورد من نصوص قرآنية متعلقة بأحوال دعوة النبي شعيب عليه السلام، وهذا ما وفقني الله للسير عليه.

والله اسأل سبحانه أن يسدّد الخطى، ويلهمني الصواب إلى ما يحب ويرضى.

التمهيد

التعريف بمصطلحات عنوان البحث

أولا: التعريف بمصطلح (المنهج)

النهج: الطريق الواضح، كالمنهج والمنهاج، وبالتحريك: البهر، وتتابع النّفس، والفعل: كفرح وضرب. وأنهج: وضح وأوضح، والدّابة: سار عليها حتى انبهرت، والثّوب: أخلقه، كنهجه، كمنعه.

ونهج الثّوب، مثلثة الهاء: بلي، كأنهج. ونهج، كمنع: وضح وأوضح، والطريق: سلكه. واستنهج الطريق: صار نهجا، كأنهج، وفلان سبيل فلان: سلك مسلكه. [1]

والمنهج العلميّ : خُطَّة منظّمة لعدَّة عمليّات ذهنيَّة أو حسيَّة بُغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها، ومناهج التَّعليم: برامج الدِّراسة، وسائله وطرقه وأساليبه).[2]

ثانيا: تعريف مصطلح (الإصلاح)

الإصلاح لغةً: نقيض الإفساد، وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه، وأصلح الدّابة، أحسن إليها فصلحت.[3]

والإصلاح، ومنه الصّلاح، نقيضُ الإفساد، وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقُوبِلَ في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسَّيِّئَةِ[4]، فمثل الفساد قولُه

---

(1) القاموس المحيط مادة (نهج) (1/ 208)

(2)معجم اللغة العربية المعاصرة أحمد مختار عمر

(3) لسان العرب (2 / 517)

(4) لسان العرب (517/2).

تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾[1]، ومثل السيئة قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[2].

والإصلاح شرعاً: سلوك طريق الهدى واستقامة الحال على ما يدعو إليه الشرع والعقل، قال الراغب: وقوله تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} (البقرة:11)، والفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، والصلاح على الضد منه، والافساد: إخراجه عن الاعتدال، والفساد عام في الكفر والضلال وكل ما هو ضار، والصلاح عام في الإيمان والرشد وكل نافع.

وعرّفه الكفوي بقوله: "الصلاح: سلوك طريق الهدى واستقامة الحال على ما يدعو اليه الشرع والعقل، والصالح: المستقيم الحال في نفسه وقال بعضهم: القائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد.

وفي (وقف الخصاف): من كان مستورا ليس بمهتوك ولا صاحب ريبة وكان مستقيم الطريقة سليم الناحية من الأذى، قليل السوء، ليس يعاقر النبيذ ولا ينادم عليه، وليس بقذاف للمحصنات ولا معروفا بكذب، فهذا عندنا من أهل الصلاح"[3].

وقال الآلوسي رحمه الله: " عبارة عن الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي"[4].

وقال الإمام الغزالي رحمه الله بعدما وضّح واجب المسلم تجاه نفسه بتهذيبه ، شرع في بيان معنى الإصلاح فقال: "ثم يعلِّم ذلك – أي الذي قام بتهذيب نفسه وصلاحه – أهل بيته ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ثم إلى أهل محلته ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل السوادى المكتنف ببلده ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب

([1]) سورة الأعراف: (59).

([2]) سورة التوبة: (102).

([3]) الكليات (ص561).

([4]) روح المعاني (203/4).

وغيرهم وهكذا إلى أقصى العالم"[1]، وبتوافر عنصري الصلاح في النفس، والإصلاح للغير يتحقق للإنسان اكتمال فضيلة أخلاقية قرآنية ذات شقين، يكمل إحداهما الأخرى.

فاذا عرفنا بأن الإصلاح هو القيام بتهذيب الآخرين والتعدي من النفس إلى الغير، فالسؤال المهم في عرضه: بم يتحقق الصلاح والإصلاح؟.

يقول الإمام بن تيمية رحمه الله: "إنّ صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلاّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس"[2]، فمضمون الإصلاح كما يعبر الإمام ابن تيمية إما أمرٌ بمعروفٍ، أو نهيٌ عن منكر.

ثالثا: التعريف بالنبي شعيب عليه السلام:

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط عليه السلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3]، وشعيب عليه السلام هو ابن ميكيل بن يشجن، ذكره ابن إسحاق [4] قال: ويقال له بالسريانية: بترون، وفي هذا نظر. ويقال: شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب.

ويُقال: شعيب بن نويب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام ويقال: شعيب بن ضيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم. وقيل غير ذلك في نسبه، قال ابن عساكر: ويقال جدته، ويقال أمه: بنت لوط، وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه، ودخل معه دمشق.

---

(1) إحياء علوم الدين (342/2).

(2) مجموع الفتاوى (306/28).

(3) سورة الاعراف: (85).

(4) البداية والنهاية (173/1)

وكان بعض السلف يسمي شعيبًا خطيب الأنبياء، يعني لفصاحته وعلو عبارته، وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته، وقد قيل غير ذلك، ومراعاة للاختصار قد تركت كثيرا مما قيل في نسبه عليه السلام، وقد ذكر في القرآن إحدى عشر مرة.

رابعا: التعريف بقوم شعيب عليه السلام (مدين)

كان أهل مدين قومًا عربًا، يسكنون مدينتهم مدين، التي هي قرية من أرض معان، من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم القبيلة، وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وكانوا على دين إبراهيم – الإسلام– الذي هو دين جميع الأنبياء ولكنه لم يطل بهم العهد حتى غيّروا دينهم الحق وكفروا بالله وعبدوا غير الله، وانحرفوا عن الصراط المستقيم فغرتهم الحياة الدنيا ومتاعها الفاني، فقد كانوا أصحاب تجارة وسلع وكانوا على الجادة التجارية الكبيرة بين اليمن والشام وبين العراق ومصر على ساحل البحر الأحمر ولكنّ حبّ المال سيطر على قلوبهم وأعماهم عن اتباع الحق، فقد كانوا يعبدون الأيكة وهي شجرة من الأيك حَوْلها غيضة وهي أشجار ملتفة على بعضها، وزيادة على كفرهم وضلالهم فقد كانوا ينقصون المكيال والميزان ويُطففون فيهما، أي يأخذون مع الزيادة ويدفعون مع النقصان ويأكلون المال الحرام. ولم يكتفوا بهذه المعاملة السيئة بل كانوا يقطعون الطريق على المارة، ويتعرضون للقوافل فيتوعدونها ويخيفونها ويعيثون في الأرض فسادًا.[1]

([1]) قصص الأنبياء لابن كثير (ص274)، البداية والنهاية، لابن كثير (ص170). دراسات في تاريخ العرب القديم، (ص170)

المبحث الاول:

الإصلاح في القرآن

مدخل:

مما لاشك فيه أن الاصلاح في المجتمعات ضرورة بشرية وفريضة شرعية ولهذا بعث الله الرسل والأنبياء لإصلاح المجتمعات بعد أن تكثر فيها الانحرافات العقدية بدعوة غير الله سبحانه وتعالى، والاختلال في التصورات الإيمانية بصورة تؤثر على النظام الاجتماعي العام سلباً، ولقد قام الأنبياء والرسل بدعوة الإصلاح في أقوامهم لإعادتهم إلى جادة السبيل وسلوك الطريق القويم الذي فطر الله الناس عليه.

وأساس الإصلاح في أي زمان أو مكان هو إصلاح التصورات والأفكار والاعتقادات فإنها الأصل الذي ينبثق عنه كل التصرفات، ولهذا كانت دعوة الأنبياء الإصلاحية ترتكز على تصحيح التصورات، حتى تتهيأ النفوس لاستقبال التشريعات فتنزل بعد ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1].

وقد سار الدعاة والمصلحون في كل زمان ومكان حذو الانبياء والرسل بالدعوة إلى إصلاح العقيدة وسائر أمور الدين.

المطلب الأول: أهمية الإصلاح في الوجود

ممّا يُشَرِّفُ الإصلاحَ ويجعله آيةَ الصّلاح ودليلَ الفلاحِ أنّ اللهَ تولاّه بنفسه استحقاقًا وفضلاً، ونسبَه إلى نفسه الكريمةِ صفةً وفعلاً، وحملَ عليه هذا الإنسانَ حثًّا وترغيبًا ليكون لرسالته أهلاً، فكان إصلاحُه له تارةً بخَلْقِه إيّاهُ صالحًا، وتارةً بإزالةِ ما فيهِ منْ فسادٍ بعد وُجودِه، وتارةً بالحكم له بالصّلاح كما قال تعالى:

([1]) سورة النحل: (36).

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[1]، وقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي ذُرِّيَّتِي﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[4].

ومن هُنا يتبيَّن مَدَى التّلاَزُم الموجودِ بين الصّلاح والإصلاح، وكلاهُما أَشَادَ بهما القرآنُ بحيث لا يَنْفَكُّ أحدُهما عن الآخر؛ لأنّ الصّلاح يكون في النّفس أوّلاً ثم يتعدّى إلى الإصلاح للنّفس، وبوجُودهما تكتملُ الفضيلةُ ويؤولُ التّغيير إلى استقامةِ الحال، لكن في الإصلاح معنًى زائدًا على الصّلاح، وهو ما يحصُل فيه منَ النّفْعِ المتعدّي بخلاف الصّلاح الّذي قد لا يتعدّى النّفع القاصر، وإن كان مِن لازمِه أن يُؤَدّيَ إلى الإصلاح؛ لأنّه ثمرةٌ له، وقال الشيخ ابن عثيمين: "فالإصلاح وصف زائد على الصلاح، فليس كل صالح مصلحاً، فإن من الصالحين من همه هم نفسه ولايهتم بغيره، وتمام الصلاح بالإصلاح".[5]

والمصلحون هم **الذين يصلحون إذا فسد الناس**، وهم أهل الاستقامة إذا تغيرت الأحوال والتبست الأمور وقلَّ أهل الخير والصلاح، ثبتوا هم على الحق واستقاموا على دين الله، وهم الذين قال الله فيهم وفي أشباههم: ﴿إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[6].

وقد مَنَّ الله على الصالحين من عباده إصلاحَ أعمالهم وتوفيقَهم لعمل الصّالحات؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ

([1]) سورة محمد: (2).

([2]) سورة الأحقاف: (155).

([3]) سورة الأحقاف: (71)

([4]) سورة يونس: (81).

5 شرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد ابن عثيمين (2/ 374)

([6]) سورة فصلت: (30)

أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[2]، وفي طليعةِ من أصلحَهم الله وجعلَهم أئمّةً في الصّلاح والإصلاح الرُّسلُ عليهم السّلام، كما قال في حقّ خليله إبراهيم: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾،[3] وقال في حقّ عيسى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4]، وقال في غيرهم: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[5].

ولقد تحدث القرآن الكريم في مواضع كثيرة، عن الإصلاح، منها ما جاء مجملاً، ومنها ما جاء مفصلاً، فالإصلاح قوام بقاء المجتمع وخيريته، لكن لا تنفك علاقته عن الصلاح، فلا صلاح بدون إصلاح، ولا إصلاح بدون صلاح، قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[6].

المطلب الثاني: الإصلاح مقصدًا دعويًا وتشريعياً.

إن الإسلام نظام محكم معقول المعنى مدرك الغايات والأهداف، فقد جعله الله تعالى مبنياً على أساس تحقيق المقاصد التي يريد الشارع حصولها في حياة المجتمع، فأقامه على قاعدة المصالح والمفاسد جلباً، ودرءاً، ولذا فإن الإصلاح يعتبر من المعاني الكلية التي يمكن أن تصنف من المقاصد الشرعية والمقاصد الدعوية، فهو مقصد تشريعي من حيث إنه يجب أن يتوخى العالم والفقيه في اجتهاداته اعتبار الإصلاح في فتاويه وتنزيله للأحكام على الوقائع العينية متحرياً الأصلح، باعتبار درجات المصالح المفاسد، لأن

([1]) سورة الأحزاب: (71).

([2]) سورة محمد: (2).

([3]) سورة البقرة: (130).

([4]) سورة ال عمران: (46).

([5]) سورة الأنعام: (85).

([6]) سورة الرعد: (11).

الحاجة الإنسانيّة طالبة له، وهو مُوافق للفطرة السّويّة، وأنّ كُلّ إنسان سويّ يُريد الإصلاح عليه أن يُحبُّ المصلحين، ويَكرَهُ الإفساد، وينأى بنفسِه عن المفسدين، وأنّ الإصلاحَ لبّ دعوة الأنبياء والمصلحين.

مع الحكم اليقيني أنّ الإصلاح الحقيقيّ الشّامل لجميع جوانب الحياة من النواحي الدعوية والتشريعية هو ما جاء به أنبياء الله – عليهم السّلام، ولا شكّ أنّ ذلك كُلَّه لا يتحقّق إلاّ بمُراعاة مُرادات ربِّ العالمين الّتي تُسمّى مقاصِد الشّريعة، وهي الحِكَم الّتي أرادها اللهُ عزّ وجلّ مِن التّشريعات عُمومًا وخُصوصًا لتحقيق عُبوديّته وإصلاح العِباد في المعاش والمعاد[1]، ولهذا لم يهمل الإصلاح الدنيوي، بل جعله من شيم الصالحين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.[2]

المطلب الثالث: منهج الإصلاح في القرآن

بعث الله الأنبياء لمهمة واحدة، هي إصلاح حال البشرية وإخراجها من عبادة الشيطان إلى عبادة الله وحده سبحانه لا شريك له، ولهذا كان أصل إيمانهم واحد؛ أي أن جميع الشرائع السماوية تدعو إلى دين الإسلام، وهو توحيد الله تعالى، التوحيد الخالص وعدم الإشراك به. كما جاء في كتاب الله تعالى عند ذكر حالهم.

قال تعالى عن ذكر حال نوح عليه السلام: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [3]. وقال سبحانه عن هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[4]. وقال عن صالح عليه السلام: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ

(1) مجلة الاصلاح مقال للدكتور سليمان الرحيلي بتصرف: العدد الخامس والثلاثون 1434

(2) سورة الأنبياء: (105).

(3) سورة الأعراف: (59).

(4) سورة الأعراف: (65).

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[1]. وعن إبراهيم عليه السلام أيضا: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [2]. وقال تعالى في دعوة موسى عليه السلام: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[3]. وعند ذكر عيسى عليه السلام قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾[4].

وعند ذكر نبينا محمد ﷺ قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾[5]، فالتوحيد الذي نادى به الرسل أقوامهم هو توحيد العبادة، الذي به إصلاح للنفس والقول والفعل والسلوك.

المطب الرابع: حاجة أهل مدين للإصلاح

كان أهل مدين كفارًا بالله، يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك، حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوء الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم رجلًا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة، فآمن به بعضهم، وكفر أكثرهم حتى أحلَّ الله بهم البأس الشديد، وقد ورد ذكرهم في القرآن في مواضع كثيرة، منها:﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[6]، وقال

(1) سورة الأعراف: (73).
(2) سورة العنكبوت: (16).
(3) سورة طه: (98).
(4) سورة آل عمران: (85).
(5) سورة فصلت: (6).
(6) سورة الأعراف: (85).

تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ* فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾[1].
وقال تعالى في الشعراء :﴿كَذّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتّقُونَ * إِنّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلّا عَلَى رَبّ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

وملخص القول: إن الاختلال العام الذي كان مخيم على أهل مدين في كافة الجوانب من الناحية الاعتقادية أو التشريعية، أو الاجتماعية، أو الأخلاقية هو الباعث على ضرورة الإصلاح وبعث نبي لتحقيق هذا الغرض، فالإصلاح لا يأتي إلا في بيئة عم فيها الفساد لتصحيح المسار ورد الأمور إلى نصابها، وهذا من فضل الله على عباده، ورحمته بهم ورعايته لشؤونهم إذ يبعث فيهم منهم من يصحح مسارهم ويصلح أحوالهم حتى يسعدوا في الدنيا، وينالوا الأجر، ويفوزوا بالنجاة من عذابه يوم القيامة.

(1) سورة الحجرات: (78–79).
(2) سورة الشعراء: (176–191).

المبحث الثاني:

منهج النبي شعيب عليه السلام في الإصلاح

من الركائز التي قام بها نبي الله شعيب عليه السلام أن عزَّزَ دعوته بإرساء قواعد الاصلاح في دعوة قومه، بعد الإيمان وحسن الاعتقاد وصحته، وقاعدة الاستقامة وكمال الالتزام بشريعة الله عز وجل، بإظهار الأدلة والبراهين الصحيحة والصريحة على صحة معتقده ودعوته، حتى لا يظن ظانّ ولا يشك شاك في ما يربو اليه من دعوته، أن قال لهم: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾[1]، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾[2]، فصار عليه السلام يبين لهم الأدلة الدامغة ويستعرض لهم صحة المنهج الذي يدعوهم اليه بما فيه من حقائق إيمانية وشرائع ناصعة. ثم قال: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾[3].

قال أهل التفسير: قصد النبوة، أو الرزق الحلال، قال ابن كثير: والأمر يحتمل، ومقصوده في سياق الآية: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: أخذت من الحلال ما كان موافقاً لشرع الله، وتركت ما كان من الحرام مخالفاً لأمر الله[4].

فبعد الاستقامة هنا كان يتطلب وضوح المنهج، وكان لزاماً للمصلح أن يكون قدوة ولا بد أن يكون مفتاحا للخير وسباقا فيما يدعو إليه، ومغلاقا للشر مجتنبا كل سوء فيما يحذر غيره منه، لا بد أن يكون قدوة تتعلق بها القلوب، وتتأثر بها النفوس، ويكون أنموذجاً يقتفى، وأسوة تحتذى.

وفي الآيات السابقة منهج قويم وقاعدة إصلاحية مهمة لكل مصلح ما الذي ينبغي عليه في تكوين ذاته ونفسه، ما الذي يجب عليه في حسن عرضه ودعوته، ما

---

(1) سورة الأنعام: (57).

(2) سورة هود: (88).

(3) سورة هود: (88).

(4) تفسير ابن كثير (344/4).

الذي ينتهي ويرتكز عليه في قدرته ومواصلته. قاعدة الإخلاص والتجرد عن المصالح الذاتية، قاعدة الارتباط بتغليب المصالح العامة للأمة.

ولذلك قد انتهى شعيب عليه السلام لقاعدة عظيمة وفائدة جليلة في الإصلاح، وهي طلب التوفيق من الله والتوكل والإنابة اليه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، قال السعدي في تفسيره: وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[1]، وكما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2]، فذلك هو النهج القويم الذي ترجمته لنا آيات القرآن الكريم وكانت دعائم يستند اليها كل الأنبياء في مواجهة الشدائد والمحن في دعوة أقوامهم.

إذن الإصلاح يعتمد ابتداء على الطاعة لله عز وجل، والموافقة لشرعه، والمجانبة لمحادته ومشاقته ومخالفة أمره، فإن دواعي الفساد والإفساد إنما مبعثها مخالفة حكم الله جل جلاله وشرائعه.

المطلب الأول: معالم الإصلاح في دعوة النبي شعيب عليه السلام.

الفرع الاول: الدعوة الى الاصلاح العقدي.

كانت دعوة جميع الرسل والأنبياء– ومنهم نبي الله شعيب عليه السلام– ليس بدعاً عن غيره من الأنبياء عليهم السلام، حيث كانت رسالتهم إصلاح العقائد وإصلاح المجتمعات: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾[3]، فدعاهم عليه السلام إلى توحيد العبادة لله وحده وترك ما هم عليه من الشرك والكفر برب العالمين، فقال لهم شعيب عليه السلام: ﴿اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ولم يذكر الله سبحانه وتعالى المعجزة التي أرسل بها، ولكن

([1]) سورة هود: (123).

([2]) سورة الفاتحة: (5).

([3]) سورة الأنبياء: (25).

بيّن أن شعيباً عليه السلام أرسل ببيّنة من ربّه، أي: دلالة وحجّة واضحة تدل على صحة ما أرسل به، كما أوتي غيره من الرّسل، لكن لم يبيّن جلّ وعلا عيْن تلك البيّنة والمعجزة تفصيلا، والمشهور في لقبه أنه خطيب الأنبياء وذلك لحسن دعوته لقومه وظهور حجته ودحض شبهاتهم.

والدعوة إلى إصلاح العقيدة، وتصحيحها هو الأساس والقاعدة التي تنبني عليها التشريعات التي أتاهم بها، والتي ستجعلهم يصححون سلوكهم ومعاملاتهم، التي اختلت بسبب اختلال العقيدة، وقضايا الإيمان، فإن كل خلل في السلوك والعمل مرجعه إلى الخلل في الفكر والاعتقاد.

بدأ شعيب عليه السلام بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالألوهية، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان في أمر الحياة كله.

يبدأ شعيب– عليه السلام– في دعوتهم من هذه القاعدة التي يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل. ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه القاعدة.

ويستصحب في دعوتهم إلى الدينونة لله وحده، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم، وترك الإفساد في الأرض بالهوى بعد ما أصلحها الله بالشريعة.. يستصحب في دعوتهم إلى هذا كله بعض المؤثرات الموحية.. يذكرهم نعمة الله عليهم: {وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلا فَكَثَّرَكُمْ}، ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم: {وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.

الفرع الثاني: الدعوة إلى الإصلاح التشريعي.

الإصلاح التشريعي أن تتجه الأحكام إلى علاج واقع الناس المختل ومدهم بالنظم والتشريعات والتعاليم والأحكام التي تلبي متطلباتهم في مختلف جوانب حياتهم بما يرسم لهم طريقاً إلى الخير والهدى سبيلاً، بحيث تكون هذه الأحكام قائمة على جلب المصالح الحقيقية المشروعة ودرء المفاسد عنهم والموازنة فيما بينها في حال التعارض أو التزاحم.

ومن الإصلاح التشريعي دعوة الناس إلى استقاء المنهج من الله تعالى، فكل ما شرعه الله مصلحة قطعاً، والموافقة لشرعه، وإتباع رسله، فيه الصلاح والفلاح بالدنيا والآخرة، ولذلك قال شعيب عليه السلام: {إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ}، أي: ما استقمتم على أمر الله، ثم حذر فقال: {وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84)}.

ويبرز الإصلاح التشريعي في دعوة نبي الله شعيب لقومه من حيث إنه جاءهم بنظام اقتصادي يعالج خللاً في معاملاتهم أصبح ظاهراً من التطفيف في الكيل وبخس الناس حقوقهم المالية بالنقص والزيادة والتي تقوم على الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى عن شعيب وهو يخاطب قومه: {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ}[1]. وقال: {وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[2].

فالقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة– بعد قضية العقيدة والإيمان– أو هي قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والتوحيد.. فقد كان أهل مدين ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، أي ينقصونهم قيمة أشيائهم في المعاملات. وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد، كما تمس المروءة والشرف. كما كانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآئبة بين شمال الجزيرة وجنوبها. ويتحكموا في طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التي وصفها الله في هذه السورة.

ومن ثم تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء، ومكافحة كل أنواع الفساد في السلوك والعمل. فهي

---

(1) سورة: الأعراف (85).

(2) سورة هود: (84–85).

بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل، وضمانة للعدل والسلام في الأرض بين الناس. وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه، فتستند إلى أصل ثابت، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء، إن المعاملات والأخلاق لا بد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة.. هذه هي نظرة الإسلام، وهي تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التي ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم! وهي حين تستند إلى ذلك الأصل الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة فيها.

الفرع الثالث: الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي.

كانت غايته عليه السلام إصلاح مجتمعه، وكان يحثّ قومه على الالتزام بشرائع الله عز وجل واتباع أوامره ونواهيه، فإنّ فيها أسباب الحياة الاجتماعية المستقرة المليئة بالبهجة والسرور، والأمن من العذاب والشرور.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[1]، ولذلك قال شعيب عليه السلام لقومه ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾[2]، كأنَّ لسان حاله يقول لقومه: إني ليس لي وجهٌ غير هذا الوجه الذي أخاطبكم فيه ولا أخفي عليكم غيره بالسر.

ولهذا يصور لنا الحديث النبوي أهمية الإصلاح الاجتماعي وجعل مرتبته أفضل من الصيام والصلاة والصدقة، يقول النبي ﷺ: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟) قالوا: بلى. قال: (إصلاح ذات البين، فإنّ فساد ذات البين هي الحالقة).[3]، فكان شعيب عليه السلام يبحث عن إصلاح اجتماعي يكون مركز انطلاق

([1]) سورة النحل: (97).

([2]) سورة هود: (88).

([3]) أخرجه أبو داود (4919)، والترمذي (2509).، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

يستيقظ فيه ضمائر وقلوب ومشاعر قومه ومجتمعه كله منه، ويكون هذا المركز زلزالا يهز أركان مجتمعه، حتى يرجع وينيب الى الله سبحانه وتعالى، فلذلك ما وجد غير الايمان بالله، والاعتماد عليه، واللجوء الى جنابه، فهذا الاصلاح هو القادر أن يجعل المجتمع سعيداً لا يشقى، وقوياً لا يقهر، آمناً لا يفزع ولا يخاف.

وفي قوله لقومه: {وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}، هذه أعم من المكيلات والموزونات. فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع. تقويمها كيلاً أو وزناً أو سعراً أو تقديراً. وتقويمها مادياً او معنوياً. وقد تدخل في ذلك الأعمال والصفات. لأن كلمة «شيء» تطلق أحياناً ويراد بها غير المحسوسات، وبخس الناس أشياءهم– فوق أنه ظلم– يشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد، أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير.. وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر، ولا تبقى على شيء صالح في الحياة، ولذا كانت الدعوة إلى إصلاح الخلل في النظام الاقتصادي أساس مهم جداً لاستقامة الحال في الوضع الاجتماعي، بما يوطد مشاعر الحب والتكافل، والترابط، ويبعد طرق وأسباب التقاطع والبغضاء والشحناء التي تقوم على أساس الأثرة والتسلط على حقوق الآخرين وأكل أموالهم بالباطل.

المطلب الثاني: قواعد الإصلاح في منهج النبي شعيب عليه السلام.

حينما نقرأ قول النبي شعيب: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾،[1] يمكن أن نتلمس في هذه الآية وغيرها مجموعة من القواعد الدعوية لتقدم لنا صورة متكاملة ومنهج واضح وتطبيق عملي في خطاب رائع يظهر فيه الاعتماد والقواعد التي يكون منها الانطلاق للإصلاح وهي التالية.

---

(1) سورة هود: (88).

1- الإصلاح للعقيدة أساس كل إصلاح.
2- الاعتراف بأنعم الله سبحانه وتعالى.
3- إصلاح الذات وإظهار القدوة الحسنة.
4- الإصلاح بقدر الاستطاعة.
5- الدعوة بالقول الحسن والحوار المتعقل.
6- ربط الأحكام بمقاصد التشريع وحكمة الشارع.
7- أهمية الاعتبار بالأمم السابقة الكافرة.
8- الثبات على المبدأ الحق دلالة الصدق.
9- طلب التوفيق من الله ﷻ والتوكل عليه والإنابة اليه.

وبيان هذه الأمور، وفق التفصيل الآتي:

الفرع الأول: الإصلاح العقدي أساس كل إصلاح

المتأمل لدعوة كل نبي يجد فيها الشبه الواضح والدعوة إلى الأمر العظيم ألا وهو تحقيق العبادة له سبحانه، وما بعدها من تصحيح لأي مخالفة إنما يكون تبعا، لأن الإصلاح العقدي هو لب الدعوة، وأساس كل إصلاح.

وهذا هو الملاحظ في دعوة نبي الله شعيب أنه في إنكاره للمنكرات التي عملها قومه من تطفيف في الميزان، وبخس لأشياء الناس، وقطعهم للسبيل، ربط هذه المنكرات بعدم طاعته لله في توحيده، ومخالفتهم له في الإيمان، إذ النظر للمفاسد في أي موضع بعيدا عن النظرة العقدية لن تحقق المرجو من الإصلاح، ولن تغير شيئا من المجتمع إلا تغييرا آنيا لحظيا، وستعود المفاسد لاحقا إلى ما كانت عليه سابقا.

ولهذا نجد أن شعيبا دعاهم ابتداء إلى التوحيد العبادة لله، فقال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} ثم ألتفت بعد ذلك إلى منكراتهم في تعاملاتهم: {وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ}، وأعاد عليهم التذكير بأخطائهم اليومية التي لها تعلق بالعقيدة، فقال: {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85)}، وفي هذه

قاعدة دعوية مهمة، ألا وهي أن الإصلاح الحقيقي المؤثر ينطلق من صحة المعتقد مع الله تعالى.

الفرع الثاني: الاعتراف بأنعم الله سبحانه وتعالى.

يقول الله جل وعلا عن لسان شعيب عليه السلام مذكراً قومه بالنعم الكثيرة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، فذكّرهم عليه السلام بنعمة الله عليهم أن كثّركم بعد قلّه، وأمدّكم بالنّسل والصحّة ودفع عنكم الأمراض والأوباء المقلّلة لكم وحفظكم من بأس الأعداء، ولم يسلّطهم عليكم فيجتاحوا دياركم ويقتّلوا أبناءكم ويستحيوا نساءكم، بل أنعم سبحانه وتعالى عليكم بأن جمع شملكم وأسبغ عليكم نعمهُ ظاهرة وباطنة وكثّر من نسلكم، فدعاهم عليه السلام أن ينتهوا مما هم عليه من الشرك وقبيح الفعل، من تطفيف المكيال والصدّ عن السّبيلين الدنيوي والدّيني، فسلك عليه السلام شتّى الطّرق في هداية قومه كما فعل إخوانه من الرّسل، فجمع بين الترغيب والتّرهيب وبيان فضل الله عز وجل عليهم فيما هم فيه من النّعيم ورغد العيش.

الفرع الثالث: إصلاح الذات وإظهار القدوة الحسنة.

القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله عز وجل من السبل المؤثرة في أي دعوة، ولهذا جاء التذكير في هذا بقول ربنا تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾، فالداعية ينبغي عليه أن ينأى بنفسه عن كل ما يمكن أن يجعله أعداء الدعوة شبهة تحول دون إقبال الناس على الدعوة، وعلى الداعية أن يوافق عمله ما يدعو إليه، وأن يلتزم بذلك بكل صرامة وحزم وجدية، وأن يأخذ بالعزائم لا بالرخص، لأن الداعية ليس كأحد من الناس.[1].

(1) بتصرف من كتاب المستفاد من قصص القرآن (1/ 252)

وهكذا يجب على الداعي إلى الله سبحانه وتعالى أن يكون قدوة، ودائما يقول بلسان القول والحال: ما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه، ما أنهاكم عن شيء ثم آتيه، ولا آمركم بشيء ثم أتركه، بل انا ملتزم بما أدعوكم إليه.[1].

الفرع الرابع: الإصلاح بقدر الاستطاعة.

قال تعالى مخبرا عما قاله شعيب لقومه: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ}، فعلى الداعي إلى الله أن تكون له إرادة جازمة للإصلاح وتغيير المنكر كل هذا وفق استطاعته الحقيقية، ووفق ما يناسب الحال والمقام الذي يواجهه، وأن يزن مقدار استطاعته بالميزان الشرعي، وأن يعرف لأي نوع من الإصلاح تصلح استطاعته القيام به، وما هي الأولويات في سلم ودرجات الإصلاح ومراحله التي يجب أن يقدم لها قدرته واستطاعته ويستنفدها فيها قبل غيرها.

الفرع الخامس: الدعوة بالقول الحسن والحوار المتعقل.

كان نبي الله شعيب عليه السلام يردّ على شبهات قومه، فلم يلتفت عليه السلام إلى حظ نفسه مما رموه من الاستهزاء والسّخرية ولكن استمر في بيان ما هو عليه من الهدى والاستقامة ودحض حججهم وإبطال إدّعاءاتهم، وكان عليه السلام يتلطّف معهم في العبارة، والدعوة لهم بالقول الحسن، يقول لهم عليه السلام: أرأيتم إن كذّبتموني بصحّة ما جئتكم به، فمن ينجّيكم من بأس الله إن جاءكم، فإنّي على يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به، وقد رزقني الله عز وجل منه رزقا حسناً، وهي النّبوة والرّسالة والرّزق الحلال الذي لا أعلم فيه أدنى شبهة من حرام، فلا آمركم إلاّ بخير لما فيه من المصالح لكم وما أنهاكم إلا عن شر، لما يترتّب عليه من المفاسد، ولست أنا ممن يأمركم الأمر ولا يأتيه وينهاكم عن المنكر ويأتيه، بل أنا أول مُبْتدر لفعل الأمر وترك النّهي. وهذا فيه برهان ساطع على صحّة ما جاء به، وأنّ شأنه ليس كشأن الجبابرة الذين ينهون أقوامهم عن أفعال وهم يأتونها، لأن مثل ذلك يُنبئ بعدم النّصح فيما يأمرون به وينهون عنه، وذلك أنّ الناصح

---

(1) فبهداهم اقتده للدكتور عثمان الخميس (ص: 266/267)

لقومه المريد لهم الخير يختار لنفسه ما يأمر به وينهى عنه غيره، وقد ذمّ الله أهل الكتاب لما تلبّسوا بعكس هذه الأوصاف فقال جل وعلا: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

وفي هذا المقام لفتة قيّمة وهي: أنّه لما قالوا له ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾، ظنّوا برسول الله ﷺ أنّه ما قصد إلا مُخالفتهم وتخطئتهم واستبعدوا أن يكون له قصد صالح فيما يدعو إليه فبيّن لهم قائلا: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾، أي: أنه ما يريد مجرّد المخالفة كشأن المنتقدين المتعمّدين للنّقد، ولكنّ ﷺ لم يكن مقصده من كلّ ذلك إلا الإصلاح والهُدى.

الفرع السادس: ربط الأحكام بمقاصد التشريع وحكمة الشارع.

ولا شكّ أنّ الإصلاح كُلَّه لا يتحقّق إلاّ بمُراعاة مُرادات ربِّ العالمين الّتي تُسمّى مقاصِد التشريع، وهي الحِكَم الّتي أرادها اللهُ عزّ وجلّ مِن التّشريعات عُمومًا وخُصوصًا لتحقيق عُبوديّته وإصلاح العِباد في المعاش والمعاد.

وهذه المقاصِد الدعوية والتشريعية تدلُّ عليها نُصوص الشّريعة ومُدركات الواقع، وهذه المقاصِد يمكن بيانها باختصار:

أولاً: الإصلاح مَقصود الشّارِع الأكبر، فالإصلاح مُراد الله عزّ وجلّ الذي أراد به الصّلاح والإصلاح لعباده شرعًا وبعثَ رُسُلَه لأجله، فلِسان حال الأنبياء جميعًا {إنْ أُريد إلاّ الإصلاح ما استطعت}. لذلك، الله ﷻ قال: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[2]، والله ﷻ ذمّ الإفسادَ وعدم الإصلاح فقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[3]، والنُّصوص في هذا كثيرة جدًا،

---

(1) سورة البقرة: (44).

2- الاعراف:170

3- البقرة:205

والإصلاح مُراد أنبياء الله عليهم السّلام جميعًا، فلِسانُ حال الأنبياء جميعًا ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[1].

ثانياً: مقصود الشّارِع مِن الخلق أنْ يحفظ عليهم ضروريّاتهم، وقد اتّفق العُلماء على أنّ الضّروريّات الكُليّة خمس: حِفظ الدِّين والنّفس والنَّسل والعقل والمال.

ثالثا: مقصود الشّارع تحصيل المصالِح ودرء المفاسد.

رابعا: مِن مقاصِد الشَّريعة الكُلِّيّة العظيمة حُصول الجماعة واجتماع الكلمة.

خامسا: مقصود الشّارِع العدل، العدلُ مِن جميع جوانبه، ولذلك لا بُدّ أنْ يكون الإصلاح داعيًا للعدل قاصِدًا العدلَ، مُتّخِذًا العدل طريقًا وإلاّ كان إفسادًا.[2].

الفرع السابع: الاعتبار بالأمم السابقة الكافرة.

نلاحظ أن نبي الله شعيب في ثنايا دعوته لقومه كان يذكرهم بما وقع على أمم قريبة العهد منهم، وغيرهم ممن سبقونه ولا يزالوا يتناقلون أخبارهم بما أصابهم من الهلاك والخزي والعذاب لمخالفتهم دين الله، سبيلا منه لأن يعتبروا مما جرى لهم، فقال عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾[3]، أي: لا تحملنّكم مخالفتي والإصرار على بغض ما جئتكم به لمخالفة هواكم واستمراركم على مشاقّتي أن يصيبكم من العقوبات والعذاب مثل ما أصاب أشباهكم من قوم نوح أو عاد أو ثمود أو قوم لوط، وما قوم لوط منكم ببعيد، فهذه ديارهم قريبة منكم، وأمّا الزّمان فليس ببعيد، وقد جاءكم من أخبارهم وما حلّ بهم من نقمة الله عز وجل لما كذبوا رسولهم وعتو عن أمر ربّهم فانتقم الله منهم، فجعل ديارهم أثراً بعد عين، وخسف بها وغشّاها ما غشّى، فكانت عاقبة أمرهم الخسران.

1- هود:88

(2) مجلة الاصلاح مقال للدكتور سليمان الرحيلي بتصرف: العدد الخامس والثلاثون 1434

(3) سورة هود: (89).

الفرع الثامن: الثبات على المبدأ الحق.

ولما علم عليه السلام من قومه المعاندة وردّ النّصيحة، توعدّهم وهددهم وغلّظ عليهم بالوعيد قائلا: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[1]، أي: إن كنتم صادقين في دعواكم فاستمرّوا عليها وعلى ما أنتم عليه من الشّقاق والصدّ عن سبيل الله تعالى، وأمّا أنا فسوف أمضي في دعوتي لقومي ولا يضرّني مخالفتكم لي وتمكّمكم وازدراؤكم لنبيّكم، فسوف تعلمون لمن تكون له عاقبة الدّار، فيُلحق في هذه الدّنيا بعقاب من عند الله عز وجل ثمّ هو يوم القيامة من المقبوحين المذمومين المدحورين، فارتقبوا ما يحلّ بكم من نقمة الله عز وجل وعذابه فإنّه لا عاصم يومئذ من أمر الله إلاّ من رحم، وأمّا انا فارتقب نصر الله عز وجل ووعده بأن يظهرني عليكم وينجّني من عملكم ومن معي من المؤمنين.

وخاطب شعيب عليه السلام قومه جميعا، المؤمنين منهم والكافرين قائلا: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُالْحَاكِمِينَ﴾[2] ، فأوصى عليه السلام أتباعه المؤمنين بالصبر على ما هم عليه من الإيمان وتحمّل الأذى من قومهم وثبّت قلوبهم بوعد الله ﷻ له بأن يحكم بينهم فيُهْلك المخالفين ويُنجّي المؤمنين ويمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ويبدلهم بعد خوفهم أمنا، ثم ذيّل عليه السلام بالثّناء على الله ﷻ بأن حكمه عدل محض لا يحتم الظلم، فهو خير الحاكمين وأوفى الواعدين.

الفرع التاسع: طلب التوفيق من الله ﷻ والتوكل عليه والإنابة إليه.

من الأمور التي ينبغي على الداعي إلى الله وغيره أن يتذكرها أن التوفيق لنتائج أي أمر يسعى إليه إنما هو توفيق من الله سبحانه، وهداية الضال إلى الحق ليس بقوتنا أو

---

(1) سورة هود: (93).

2- الاعراف:87

حولنا إنما هو فضل من الله يأتيه من يشاء، ولهذا يذكرنا الله بقول شعيب: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)}

وللشيخ السعدي كلامٌ جميلٌ في هذا الجانب، أنقله بتمامه، قال رحمه الله: " {إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي، شيء بحسب استطاعتي، ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله: {وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ} أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير، والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي، {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} أي: اعتمدت في أموري، ووثقت في كفايته، {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات، وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه، كما قال تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} وقال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.[1].

(1) تفسير السعدي (سورة هود)

المبحث الثالث:

قوم شعيب في مواجهة الإصلاح

كان من وسائل الصدّ لدعوة شعيب عليه السلام من قبل قومه أن جاءوا بالتهكم والسخرية، وأتوا بما يستوجبون به سخط الله عز وجل، وحلول الفساد في أرضهم وديارهم، وقبل ذلك في نفوسهم وعقولهم وقلوبهم، قالوا: ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[1]، لم يقولوا ذلك ذكراً لصفات حسنة فيه، ولكنهم يقولون: إن مقتضى ما تقوله لنا يدلنا على أنك لست بحليم ولا رشيد. يقولون ذلك على سبيل التهكم.

المطلب الأول: وسائل قوم شعيب لمواجهة الإصلاح

الفرع الأول: رمي الاتهامات والشبهات.

من الدلالات على ضعف حجج أهل الباطل تعلقهم أحيانا بالسخرية ورمي الشبهات والشائعات على دعاة الحق، ومن ذلك ما فعله قوم شعيب مع نبيهم، فقال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، لما كانت الصلاة أخصّ أعمال شعيب عليه السلام المتميّز بها عن قومه، والمخالفة لعاداتهم، جعلوها المشيرة عليه بأن ينهاهم على ما هم عليه من الضّلال، فكأنّهم يقولون بسخريّة واستنقاص لرسولهم: أصلاتك هذه التي تُصلّيها تحملك على أن تنهانا بأن نترك عبادة ما كان يعبد آباؤنا الأقدمون، وننصرف إلى عبادة إلهك الذي تُصلّي له، أو أن لا نتصرّف في أموالنا كيف نشاء من التّطفيف في الكيل والميزان ونخضع لأمرك فلا نتصرّف بها إلا على الوجه الذي ترضاه أنت؟

ثم قالوا: {إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} أي: إنّك لأنت المتفرّد من بيننا بالحلم والوقار وحسن الخلق والعقل الرشيد الأمر السديد، وهذا استئناف تهكّم آخر منهم

---

(1) هود: (87)

لنبيّهم الأمين، وهم يقصدون عكس هذه الأوصاف وذلك لنفوسهم الخبيثة وبواطنهم الفاسدة، ولكنّ شعيبا عليه السلام واجه تلك الدعاوى والسلوكيات بالحلم والصبر على قومه رجاء أن يعلموا أنّهم على جهل وسفه، وعسى الله أن يكشف عنهم غمام الشبهات ودخن الشّهوات فيبصروا الجادّة، لهذا لم يقنط عليه السلام ولم يملّ من محاجّتهم ودعوتهم إلى الهدى، وهذا هو منهج الرّسل والدّعاة في دعوة الخلق إلى الله عز وجل.

الفرع الثاني: قطع السبيل

كان أهل مدين يقطعون على النّاس السّبيل ويتوعّدونهم ويُخيفون من سلكها بسلب متاعه فيتربّصون للمارّة فيبخسوا أموالهم وأمتعتهم ولا يُخلّون سبيلهم حتى يأخذوا منهم نسبة من أموالهم (وقيل كانوا يأخذون العُشر) وهذا ما يُسمّى بالمكوس، ومع كونهم يقطعون السّبيل الحسّي الدنيوي على النّاس كانوا يقطعون الطرّيق المعنوي الدّيني، فأخذوا بصدّ النّاس عن الهداية بشتّى الطّرق، قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[1]، يعني: تبغون لسبيل الله عز وجل عوجا وتحاولون وصف دعوة رسول الله شعيب عليه السلام، المستقيمة بأنّها باطل وضلال حتّى تُنفّروا النّاس منها، فالباطل في التعامل كان له ارتباطا وثيقا بالخلل العقدي في قلوبهم.

الفرع الثالث: التفاخر بالكثرة والقوة

استخفاف قومه به وتهديدهُ برجمه عليه السلام، وبعد هذا التلطّف والودّ منه عليه السلام لقومه ردّوا عليه: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[2]، وتأمّل إلى جورهم وقولهم على رسولهم زورا وبهتانا مع كونه مِقْوالا فصيحا قوي الحجّة والبيان، رموْه بالهذيان

(1) الاعراف: (86)

(2) سورة هود: (97)

وضعف البيان وأنّهم لا يفهمون مُراده.! وليس الأمر كذلك بل شأنهم كما أخبر ربّ العالمين عن المشركين بقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُون﴾[1].

(1) سورة البقرة: (88)

الفرع الرابع: السعي لطرد المصلحين من البلد.

وهذا ما يمكن ملاحظته حينما قالوا قوم شعيب لنبيهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾، أي: ما أنت فينا من الرؤساء ولا من الكبار، ولكنّك دوننا في المقام، وليس لك منزلة عندنا تجعلنا نأخذ برأيك ونتابعك على ما أنت عليه، ثم قالوا له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾، أي: وما يمنعنا من رجمك إلا مكانة قبيلتك عندنا وإكرامهم لنا وعزّهم علينا، ثم اتبعوا كلامهم بقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، فأنت محقّر عندنا، هيّن على نفوسنا، فلا يُعجزنا رجمك ولا يشتد على نفوسنا إن فعلنا ذلك.

ومع كل هذه الإساءات منهم إلا أنه عليه السلام ذكرهم عن نفسه على أنه لا يملك لهم نفعا ولا ضرا، وأنّه لا ينتصر لنفسه، إنّما ينتصر للحق، وما هو إلا رسول من الله تعالى لمناصحته وارشادهم لسواء السبيل.

ومن الحوار بين الطرفين يمكن ملاحظة الحسرة والألم في نفسه عليه السلام من ردّهم القبيح واستهانتهم بالله عز وجل إذ لم يقدروه حق قدره، بل اتخذوه وراءهم ظهريّا، فقال عليه السلام لهم موبخا: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: تراعوني لأجل قبيلتي وعشيرتي ولا تراعوني بأنّي رسول من الله، فلا تخافون من بطشه وعقابه، فصار رهطي أعزّ وأكرم عليكم من الله ﷻ؟! فنبذتم أمر الله وراء ظهوركم متهاونين به تسخرون غير مبالين ولا تخافون من نقمته وغضبه، فيحلّ بكم عذاب غير مردود. ثم قال عليه السلام: ﴿إِنّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، فهو سبحانه لا يخفى عليه من أعمالكم شيء وسيجازيكم عليها يوم ترجعون إليه، وفي خطاب شعيب عليه السلام فيه التّغليظ بالوعيد لمخالفيه وتثبيت المؤمنين الذين اتّبعوه.

المطلب الثاني: قوم شعيب والعذاب

الفرع الأول: عاقبة قوم شعيب

من سنن الله الشرعية في ملكوته أن العاقبة لا تكون إلا للمتقين، وأمر الله تعالى في نصرة عباده الصالحين واضح وظاهر مثلما ظهر ذلك في كتابه العزيز، ومن ذلك ما جرى لقوم شعيب نتيجة لتماديهم في الباطل، وعصيانهم لنبيهم، وصدا عن الانصياع للحق، فجاءهم أمر الله بالعقوبة والدمار، المشابه لمن سلف من الأمم الكافرة، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)}.[1].

وتنوع الإخبار عن دمارهم في سور أخرى في القرآن العزيز، فمن ذلك، ما ورد في سورة الشعراء قال تعالى:{فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189)}، وهكذا اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت أرواحهم وخمدت.

الفرع الثاني: نبي الله شعيب والإعذار من قومه

إذا اجتهد الداعية في دعوته، وبذل الوسع مع العاصي، فلا تثريب عليه لو وقع على من خالفه ما أراده الله سبحانه، فهو سبحانه يتصرف في ملوكته بما يشاء، وهذا ما تم مع النبي شعيب بعد هلاك قومه، قال تعالى:{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)} (الأعراف)، أي فتولى عن قومه بعد أن أهلكهم الله، وقال مقرعًا وموبخًا لهم قد أديت إليكم ما أرسلني الله به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به من ربكم، فلهذا قال: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93)} (الأعراف)

(1) سورة هود: (95).

الخاتمة

في الختام، أحمد الله وحده سبحانه على ما تفضل به وأكرمني لتقديم هذا البحث الموجز في جانب مهم من مقاصد الدين، ألا وهو ما يتعلق بالإصلاح في الحياة.

وتبين بعد العرض السابق بأننا لن نفهم قضية الإصلاح فهمًا واضحا إلا من خلال قراءة سيرة الأنبياء عليهم السلام، وعلى وجه الخصوص سيرة نبينا محمد ﷺ، للتعرف على منهج الإصلاح الذي ساروا عليه في الدعوة إلى الله، لتحقيق التوحيد صافيا كريما، والذي هو لبّ الإصلاح وأساسه، فنحن نعلم يقينا بأن الأنبياء والرسل عليهم السلام هم المعلمون وهم المربون، ومنهجهم هو المنهج القويم للوصول إلى مرضاة رب العالمين.

ومما لا شك فيه أن منهج الأنبياء وحياتهم ميدان رحب فسيح للنهل منه في جوانب منها الدعوة، والأخلاق، وتعلم القيم التربوية، مما يجعلنا هذا نزداد في القراءة في حياتهم، وسبل الدعوة عندهم.

وأخيراً هذا ما يسره الله تعالى لي بكتابته حول هذا الموضوع الكريم، فعسى أن قاربت بالبحث غاية موفقة في النظر والبحث، فإن وفقت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن قصرت فذلك جهد ما وصلت إليه معرفتي القاصرة، والله المعين لكل خير.

التوصيات

بفضل الله ومنته، مر علينا في هذا البحث أهمية الاصلاح وأنه من مقاصد الدين العظيمة، وهو سبيل الأنبياء والمصلحين، ولا يأتي الاصلاح للمجتمعات إلا بكل خير واستجلاب للسعادة الدنيوية والأخروية، ومن آثاره العاجلة الحياة الطيبة والجزاء الحسن والنجاة من الهلاك والدمار وكذلك وراثة الأرض والاستغلال فيها، وأنّ الإصلاح سبب لولاية الله للعبد وحفظ الأنساب، وسبب أيضا للطمأنينة والمغفرة، ولا يتأتى هذا كله إلا بالرجوع للكتاب والسنة على فهم سلف هذه الامة، وفي هذه الخاتمة أود أن أسجل أهم نتائج والتوصيات في البحث:

أولاً- إنّ الإصلاح مطلب دعوي ومن مقاصد الشريعة وهو مسلك الانبياء وأن دعوة الأنبياء دعوة واحدة، من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

ثانيا- إن الصبر والإيمان عاقبته النصر والنجاة والتمكين.

ثالثا- الداعي إلى الاصلاح يجب أن يكون قدوة لغيره، سباقا إلى فعل الخير.

رابعا- ملة الكفر واحدة في ردّها على أنبياء الله والمصلحين.

خامسا- الأنبياء جميعا بعثوا للصلاح والاصلاح، إصلاح المجتمعات، وإصلاح ما بينهم وبين الله وإصلاح ما بينهم وبين الناس.

سادسا- إن هذه الوحدة بين الأنبياء عليهم السلام لم تأت عبثاً، بل هي وحدة تستدعي من الدعاة الاقتداء والتأسي بها فيما بينهم، درءاً للفرقة والخلاف.

سابعاً: أن منهج الإصلاح ينبغي أن يرتكز على:

الأول: الدعوة بالحسنى، واستخدم الترهيب أحيانا.

الثاني: القدوة الحسنة في الدعوة الى الله سبحانه وتعالى، مع الترغيب والتذكير بنعم الله.

الثالث: الدعوة إلى أصلين عظيمين:

الأصل الأول: عبادة الله جل وعلا.

الأصل الثاني: الوفاء بالحقوق، وعدم ظلم الناس، وعدم أخذ أموالهم بالباطل.

ثامنا: لكل نبي منهج في الدعوة، بما يتناسب مع أحوال قومه، ولهذا أوصي بعمل أبحاث أخرى في منهج كل نبي في سبيل الإصلاح لقومه.

المصادر والمراجع

- البداية والنهاية، لابن كثير تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر، ط1: 1418 هـ - 1997م.
- تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - 1419 هـ
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ -2000 م
- الدعوة إلى الإصلاح، محمد الخضر حسين، دار الدليل، ودار المودة، المنصورة/ مصر، (2011)
- دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومى مهران، الناشر: دار المعرفة الجامعية
- سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي
- سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت
- سنن الترمذي المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر

- السنن الصغرى للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، 1406 – 1986
- شرح العقيدة الواسطية، لمحمد بن عثيمين، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة (1424)
- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
- المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، الدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (1418 – 1997)
- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى، 1420 هـ
- عنوان الكتاب :معجم اللغة العربية المعاصرة ;المؤلف: أحمد مختار عمر؛ الناشر: عالم الكتب – القاهرة؛ سنة النشر: 1429 – 2008
- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – 1412 هـ
- موسوعة الأخلاق، خالد جمعة الخراز، الطبعة الثانية، (1432 – 2011)، طبعة خاصة لوزارة الأوقاف في دولة قطر.

- نظرات في أحسن القصص، الدكتور محمد السيد الوكيل، الدار الشامية (بيروت)، دار القلم (دمشق)، الطبعة الأولى (1415– 1994)
- أبحاث في الإصلاح:

مؤتمر (الإصلاح والتغيير، رؤية شرعية) دولة الكويت، 2013– 1434